# الشفاعة

محاولة لفهم القديم بين المؤيدين والمعارضين

الدكتور مصطفى محمود

## في هذا الكتاب

ما أقدمه في هذا الكتاب هو "محاولة لفهم" واجتهاد قد يصيب وقد يخطئ، ولا أدعي لنفسي كمالاً ولا عصمة، وأرى أن من حق كل قارئ أن يختلف معي وأن يفهم القضية على طريقته، فقد أرادنا الله أحراراً، وأرادنا أن نتدبر آياته ونتفهم قرآنه كل على قدر طاقته.

والله وحده هو صاحب العلم الكامل.

ورضاه سبحانه هو منتهى رجائنا.

وغاية غاياتنا هي أن نسجد ونقترب.

## مقدمة

إشكالية الشفاعة موضوع تناولته الفرق الإسلامية، وخاض فيه المفكرون من كل اتجاه.. وسبب الإشكال أن القرآن ينفي الشفاعة في الكثير من آياته المحكمة نفياً مطلقاً، وفي آيات أخرى يذكرها مقيدة ومشروطة بالإذن الإلهي.. بينما تروى لنا الأحاديث النبوية بأن محمداً عليه الصلاة والسلام يقف شفيعاً يوم القيامة للمذنبين ولأهل الكبائر من أمته، وأن الله يقبل شفاعته.. وتتواتر الأحاديث بهذا المعنى بصياغات مختلفة في البخاري وغيره، ويقف المسلمون أمام الاختيار الصعب بين النفي القرآني وبين ما جاء في السنة.

وفي هذا الكتاب المختصر بين أيديكم نأخذكم معنا في هذه الرحلة الشائكة بين كلام المؤيدين والمعارضين، وبين إسلام أهل التفويض الذين آثروا إسلام قيادهم لله وقبول ما جاء في القرآن والسنة، دون جدل ودون محاولة زج العقل في قضايا هي غيب وهي شأن محجوب من شؤون الآخرة، لا يستطيع العقل أن يحيط

بأسراره.. وقالوا: نؤمن بما جاء في القرآن وما جاء في السنة، ولا نخوض في "كيف" و"لِمَ"؟!! ونسلّم الأمر كله لله.

ونترك للقارئ أن يختار مكانه وموقعه الذي يرتاح إليه بين جميع الفرقاء.

# الفئة الناجية

في دنيانا الفوز بالأغلبية يوصلك إلى الفوز بكل شيء، فأحزاب الأغلبية هي التي تفوز بالمناصب؛ وهي التي تمثل الشعب أكثر؛ وهي التي تمثل وجهات النظر الأكثر عدلاً والأكثر إنصافاً.. وأن تكون مع الأغلبية معناها أن تكون مع الحق ومع أهل الصدارة.. هذا حال الدنيا.. أما في الآخرة فيعلمنا ربنا أن الأغلبية على ضلال.. وأن الأكثرية في جهنم.. فأكثر الناس في القرآن لا يعلمون؛ وأكثر الناس لا يفقهون؛ وأكثر الناس لا يؤمنون؛ وأكثر الناس لا يعقلون.. إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل.. ويقول ربنا عن الأكثرية.. إن يتبعون إلا الظن.. فهم على الباطل دائماً؛ وهم الأخسرون على طول الخط.. ولن يدخل الجنة في آخر المطاف إلا الأقلية.

يقول ربنا عن هذه الفئة الناجية.. وقليل من عبادي الشكور.. ويقول عن المؤمنين.. وقليل ما هم.

وهذه هي القلة المرشحة للفوز بالجنة.. فلا اعتبار بالأغلبية في الآخرة؛ والكثرة لا قيمة لها.. فنحن أمام انتقائية صارمة؛ وغربال ضيق الخروق لن ينفذ منه إلا الصفوة وصفوة الصفوة.

ولن يجرؤ صوت أن يرتفع أمام هذه الانتقائية الربانية الصارمة، حتى الملائكة لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً.. ولا يشفعون إلا لمن ارتضى.

وما ترويه الأحاديث عن أن محمداً عليه الصلاة والسلام سوف يخرج من النار كل من قال: لا إله إلا الله.

ولو زنا ولو سرق..؟!!.

ولو زنا ولو سرق.. رغم أنف أبي ذر.

هكذا يقول الحديث؛ وهو ما يخالف صريح القرآن.. فالقرآن يقول في محكم آياته: **(إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً)**.

(النساء 145)

والمنافقون هم الذين يقولون: (لا إله إلا الله) في كل مناسبة وتنطق ألسنتهم بما يخالف سرائرهم.. وهم في الدرك الأسفل من النار، ولن يجدوا لهم نصيراً بصريح القرآن.

والمعنى المستخلص هو أن قول: (لا إله إلا الله) باللسان مرة أو مرات أو طول العمر لن يغني شيئاً؛ ولن يحقق لصاحبه نجاة ولا فلاحاً إلا إذا صادق القلب

وصادقت الجوارح وأكدت الأفعال على هذا القول، وهو ما لم يرد له ذكر في الحديث.

والنبي يشكو أمته في القرآن ولا يتوسط لمذنبيها فيقول لربه: **(يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً)** (الفرقان 30)

وهي شكوى صريحة.. وكلام مناقض لأي شفاعة.

ولن ينجو من المذنبين إلا من تكرم عليه رب العزة وفتح له باباً للتوبة قبل الممات.

والملائكة في طوافهم حول العرش يسبحون لربهم ويستغفرون للمؤمنين ويدعون لهم قائلين: **(ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم، ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم، وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم)** (غافر 7-9)

إذن الوسيلة الوحيدة للنجاة من العقاب هي أن يقي ربنا عباده من الوقوع في السيئات أصلاً.. أو يفتح لهم باب التوبة في حياتهم إذا تورطوا فيها.

وهذه هي أبواب الشفاعة الممكنة.. وهي دعاء النبي لمسلمي هذه الأمة بأن يختم حياتهم بتوبة.. ونرجو أن نكون من الفائزين بهذا الدعاء.. وهذا الدعاء المحمدي هو الشفاعة التي نفهمها بالمعنى القرآني.

أمّا الشفاعة بمعنى هدم الناموس وإخراج المذنبين من النار وإدخالهم الجنة.. فهي فوضى الوسائط التي نعرفها في الدنيا.. ولا وجود لها في الآخرة.. وكل ما جاء بهذا المعنى في الأحاديث النبوية مشكوك في سنده ومصدره لأنه يخالف صريح القرآن.

ولا يعقل من نبي القرآن أن يطالب بهدم القرآن.

ولكن المسلمين الذين عُرفوا بالاتكالية قد باتوا يفعلون كل منكر ويرتكبون عظائم الذنوب اتكالاً على نبيهم الذي سوف يخرجهم في حفنة واحدة من النار ويلقي بهم في الجنة بفضله وكرمه.. وهم الذين شكاهم إلى ربه في صريح قرآنه وجأر بشكواه قائلاً: **(يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً)** (الفرقان 30)

والقرآن يقول: **(لله الشفاعة جميعاً)**.. وهو بذلك يجمع سلطة الشفاعة جمعية واحدة ويجعلها لله وحده.. ويقول:**(ما من شفيع إلا من بعد إذنه)**(يونس 3)

والسبب طبيعي.. فهو وحده الذي يعلم استحقاقات كل فرد.. وماذا فعل في دنياه من خير وشر؟.. وما هي أعذاره إن كانت له أعذار؟.. وهو الوحيد الذي يعلم قلبه وضميره ويعلم سره، ويعلم ما هو أخفى من ذلك السر.

فماذا سوف تضيف شفاعة أي شفيع لعلم الله؟؟!!.

**(أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض)** (يونس 18)

ومن ذا الذي يجرؤ أن يعدّل حكماً حكم به رب العالمين.

والقرآن يقول في آية شديدة القطع والوضوح:

**(له غيب السموات والأرض أبصر به وأسمع ما لهم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحداً)** (الكهف 26)

القرآن يقول في قطعية واضحة.. إن الله لا يشرك في حكمه أحداً.. ويقول في قرآنه:

**(وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع)** (الأنعام 51)

وكل هذا نفي صريح للشفاعة يوم الحساب.

ثم يتكرر نفس المعنى في آية أخرى في سورة السجدة الآية 4

**(الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون)** فأضاف في هذه الآية حرف "من".. **(ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع)** وهو نفي قطعي لأي نوع؛ من ولي أو شفيع.

هذه الآيات المحكمات في نفي الشفاعة تجعلنا نعيد النظر بتفهم لأي آية تتكلم عن الشفاعة ونفهمها في حدود "المتشابه" فلا ننساق وراء هذه الأحاديث التي تملأ كتب السيرة، وتدّعي بأن النبي عليه الصلاة والسلام سوف يخرج من النار كل من قال لا إله إلا الله (وما أسهل أن نقول وما أهون أن ننطق بالكلام ونحن أكثر الأمم كلاماً وأقلها التزاماً).

ويوم القيامة يوم عظيم ويوم مجموع له الناس، ويوم مشهود ويوم يجعل الولدان شيباً.. ولا يمكن أن يكون محلاً لهذا التبسيط ولهذه الخفة في الفهم.

**(يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون)** (البقرة 254)

وللأسف الشديد نحن نقرأ كتب السيرة والأحاديث بتسليم مطلق وكأنها قرآن منزل ومحفوظ.. والله لم يقل لنا أنه تولى حفظ هذه الكتب.. وهو لم يحفظ إلا القرآن.. وكل ما عدا القرآن من كتب يجب أن تخضع للنقد والفحص مهما عظم شأن أصحابها.. والإسرائيليات تملأ كتب السيرة، وقد دسوا علينا أن الرسول سُحر، وأن جبريل استخرج له لفافة السحر من البئر.. وهو كذب صراح بشهادة القرآن نفسه.. بما روي على لسان الكفار اتهاماً للنبي عليه الصلاة والسلام:

**(إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً)** (الإسراء 47)

فالقرآن ينسب أمثال هذا الاتهام للظالمين من الكفار الذين يريدون تشويه صورة النبي بما لا يليق وبما ليس فيه.. والآية تكذيب ضمني لهذه الحكايات التي ذكرها كتّاب السيرة، والتي روت أن النبي عليه الصلاة والسلام بفعل هذا السحر يأتي بأفعال ولا يدرك بأنه فعلها، ويأتي بأقوال ولا يدري بأنه قالها.. حتى أخرج

له جبريل السحر وتم شفاؤه.. وهو كلام خطير يطعن في دور النبي عليه الصلاة والسلام كمبلغ عن الله وكرسول.

والقرآن صريح في التأكيد على عصمة النبي عليه الصلاة والسلام.

**(والله يعصمك من الناس)** (المائدة 67)

فهذه المرويات كلها أكاذيب.

وليس غريباً أن تمتلئ هذه الكتب بالمدسوس من أحاديث الشفاعة، فنقرأ في أحدها أن النبي عليه الصلاة والسلام يدخل بشفاعته إلى الجنة رجلاً لم يفعل في حياته خيراً قط.. ويكون هذا الرجل هو آخر الداخلين إلى الجنة.

وما الهدف من أمثال هذه الأحاديث المدسوسة سوى إفساد الدين، والتحريض على التسيب والانحلال، وفتح باب الجنة "سبهلله" للكل.. لأن الشفيع سجد عند قدم العرش وقال متوسلاً: (لا أبرح حتى تدخل كل أمتي الجنة يا رب).

ومرويات كثير رواها أصحابها بلا عدد وبلا حصر، وأحياناً بحسن نية ظناً منهم أنهم يزيدون بها في تمجيد النبي ويرفعون مقامه عند ربه.. وينسون أنهم بكلامهم يفسدون جلال المشهد، ويهدمون جدية اللحظة التي تشيب لها الولدان؛ وتزيغ فيها الأبصار؛ وتنعقد الألسن؛ وتتزلزل الأقدام؛ وتذهل كل مرضعة عما أرضعت.

هذه اللحظة الهائلة التي يحشد فيها القرآن كل ألوان الأهوال:

**(إذا الشمس كورت، وإذا النجوم انكدرت، وإذا الجبال سيرت، وإذا العشار عطلت، وإذا الوحوش حشرت، وإذا البحار سجرت، وإذا النفوس زوجت، وإذا الموءودة سئلت، بأي ذنب قتلت، وإذا الصحف نشرت، وإذا السماء كشطت، وإذا الجحيم سعرت)** (التكوير 1-12)

هل هذه اللحظة يساوم النبي فيها ربه لإخراج رجل من النار وإدخاله الجنة وهو لم يفعل خيراً قط في حياته.

إن لم يكن هذا هو الهزل.. فما يكون؟

وحاشا لله.. ما كان لرسولنا العظيم أن يفعل هذا.. إن هي إلا تخرصات وأكاذيب وأقوال مدسوسة.. ولو استطاعوا أن يجعلوا منه ابناً لله لفعلوا.

أن للإسلام أعداء ولدوا مع ميلاده؛ وكبروا معه؛ ولبسوا ملابسه؛ وصاحبوه بالسوء؛ وحاصروه بالفتن؛ وحفوه بالعداوات؛ وحاولوا تشويهه بالمفتريات.. ورأيناهم في زماننا يلبسون لبسة الإرهاب؛ ولن يكفوا عن الكيد له والمكر بأهله.. إلى قيام الساعة.

ولكن الإسلام وقف لهم بالمرصاد.

وحسن فهم القرآن وسلامة تفسيره كان التأمين الحقيقي والضمان الوحيد لسلامة الدين نفسه.

اقرأوا السيرة من خلال القرآن؛ تفهموا السيرة أحسن.. وتفهموا الدين أحسن، ولا تستخفكم الروايات والأحاديث التي تدخلكم الجنة بغير حساب لمجرد أنكم تلفظتم بكلمة التوحيد.. فالتوحيد ليس مجرد كلمة، وإنما حقيقة تملأ القلب

ويترجمها العمل؛ ويؤكدها السعي في الأرض وفي مصالح الناس؛ وتعبر عنها حركة الحياة بأسرها.

**(وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، وأن سعيه سوف يرى، ثم يجزاه الجزاء الأوفى، وأن إلى ربك المنتهى)** (النجم 39-42)

ليس للإنسان إلا ما سعى.. والسعي هنا يتضمن كل حركة الإنسان؛ ومجموع عمله ونشاطه؛ وثمرات فكره؛ ومجموع خيره وشره ونفعه وضرره، إلى وقفة المنتهى أمام ربه حينما تحين الساعة.. أما الكلام مجرد الكلام فلا يقدم ولا يؤخر.

أمّا "قال" و"قلنا" و"قالوا" فهي شقشقة ألسن ومجرد هواء لن يُدخِل أحداً جنة ولن يُنجي أحداً من نار.

سبحانه لا إله إلا هو ولا رجاء إلا فيه.

# وما هم بخارجين من النار

القرآن ينفي إمكانية خروج من يدخل النار في الكثير والعديد من آياته؛ من الكفار ومن المسلمين أيضاً.

**(يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم )** (المائدة 37)

وقيلت في الكفار.

ويقول أهل النار في سورة "المؤمنون":

**(ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون، قال اخسأوا فيها ولا تكلمون)** (المؤمنون 107-108)

وقيلت في الكفار.

وعن الكفار أيضاً في سورة البقرة:

**(كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار)** (البقرة 167)

ولكن القرآن يعود فيقول نفس الكلام عن المسلمين المنافقين:

**(إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً)**(النساء 145)

ويقول عن عصاة المسلمين:

**(ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين)** (النساء 14)

ويقول عن الظالمين؛ والظالمون فيهم المسلم الظالم والكافر الظالم:

**(ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع)** (غافر 18)

ويقول عن قاتل النفس ويدخل فيه المسلم وغير المسلم:

**(ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاءه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً)** (النساء 93)

ويقول الله لمحمد عليه الصلاة والسلام في سورة الزمر:

**(أفمن حق عليه العذاب أفأنت تنقذ من في النار)** (الزمر 19)

(والكلام لرسول الله مباشرة في استفهام استنكاري)

والله ينكر على رسوله أن يقول مثل هذا الكلام عن أهل النار ممن حقت عليهم كلمة العذاب من كفار أو مسلمين.

كما ينكر الخروج من النار على من كتب عليهم بدخولها.. فكل من يدخل النار تتأبد إقامته فيها، ولا يوجد في القرآن حكاية التعذيب لأجل محدود في جهنم ولا فكرة "المطهر" التي نقرأها في كتب "إخواننا" المسيحيين.. يقول ربنا في الآيات 80-81 من سورة البقرة: **(وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة، قلت اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون، بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته** (وهو كلام عن مسلمين) **فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون).**

وفي سورة يونس الآيات 26-27 يتكلم عن الخطائين من المسلمين: **(والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)** والمذنبون موضوع الآيات هم الذين أذنبوا ولم يتوبوا وتمادوا وانغمسوا في ذنوبهم حتى أحاطت بهم فهم أهل الإصرار والاستكبار والتفاخر بالذنوب.

وهذه الثوابت القرآنية تتناقض تماماً مع مرويات الأحاديث النبوية في كتب السيرة عن إخراج الرسول عليه الصلاة والسلام لمن يشاء من أمته من النار مما يؤكد أن هذه الأحاديث موضوعة ولا أساس لها من الصحة، ولا يمكن أن تكون قد صدرت عن النبي.

بل إن درجات النار وأقسامها قد تحددت سلفاً في القرآن، ومواقع المجرمين قد عُلمت.

**(وإن جهنم لموعدهم أجمعين.. لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم)** (الحجر 43-44)

فكل مجرم قد تحددت مكانته من قبل في النار؛ واختصت به واختص بها.. وهذا يؤكد أن كل ما ذكر عن إخراج الرسول عليه الصلاة والسلام بشفاعته للبعض من النار وإدخالهم الجنة مشكوك في صحته.

والذين يأكلون الربا من المسلمين وغير المسلمين تتحدث عنهم الآية 275 من سورة البقرة: **(الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد**

**فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)** كيف يشفع الرسول في هؤلاء؟! وكيف يسبق ربنا بالقول في قضايا حسمها الله في القرآن من الأزل؟!.

وشفاعة الملائكة للبعض في القرآن لا تأتي أبداً سابقة للحكم الإلهي بالعفو بل تأتي بعده **(لا يشفعون إلا لمن ارتضى)** فالحكم الإلهي بالعفو يأتي أولاً وتكون شفاعة الملائكة أشبه بالبشارة.. حينما تعلم الملائكة أن الله قد ارتضى تبرئة فلان فإنها تبشره، فالمقام الإلهي مقام جليل مرهوب.. وفي الحضرة الإلهية لا يملك أحد أن يسبق الله بكلمة أو رأي **(لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون)** (الأنبياء 27)

وفي سورة النبأ الآية 38 يقول القرآن عن الملائكة: (لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً).

ويقول أيضاً: **(وكم من ملك في السموات والأرض لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى)** (النجم 26)

ومعنى ذلك أن شفاعة الملائكة لا تأتي إلا بعد الإذن وبعد العلم بأن الله قد عفا عن فلان.. فهي بشارة وليست شفاعة، وهي أقرب إلى التهنئة بالنجاة.

والقانون العام في ذلك اليوم يوم الدين.. يوم تدان الأنفس بما عملت.. أنه لا شفاعة تجدي ولا شفاعة تقبل.. لأنه لا أحد يملك هذه الشفاعة.. فلله الشفاعة جميعاً.. لمن الملك اليوم لله الواحد القهار.. لا أحد غيره.. ولا كلمة إلى جوار كلمته:

**(يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله)** (الانفطار 19)

لا تملك أي نفي لأي نفس.. مهما علا مقام هذه النفس التي تشفع ومهما بلغت درجتها.. لا تملك من أمر الله شيئاً.

ويلخص القرآن قانون هذا اليوم الرهيب في كلمات قليلة:

**(قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السموات والأرض)** (الزمر 44)

فجمعية الأمر والنهي في يده وحده.. هو وحده الملجأ والملاذ، وجمعية الشفاعة بأسرها في يده، فهو وحده صاحب العلم المحيط؛ وهو وحده أرحم الراحمين، ولا يستطيع مخلوق أن يدعي أنه أكثر رحمة بعباد الله من الله أو أعلم بهم منه.. فهو وحده عالم الغيب والشهادة.. وهو وحده يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيط أي منهم بعلمه إلا بما شاء.. وهو وحده الولي وهو يحي الموتى وهو على كل شيء قدير.

**(ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءً يجز به ولا يجد له من الله ولياً ولا نصيراً)** (النساء 123)

والجزاء في هذا اليوم على قدر العمل، والعفو الصفح حق لله وحده، فلله الشفاعة جميعاً، لا يشاركه في هذا الحق مخلوق، فهو يعفو إن شاء ولا يُسأل عما يفعل، وهو يعاقب بالنار الأبدية إن شاء.

وإذا كان الهدف من شفاعة الشفعاء هو إضافة معلومة عن عذر المذنب وظروفه؛ فالله تعالى أعلم بظروفه من أي مخلوق.. يقول القرآن:

**(إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم)** (النجم 32)

(فمن منكم عنده مثل هذا العلم الإحاطي) لينافس رب العالمين في هذا المقام.. لا أحد قطعاً.. والله وحده هو الجدير به.. ولهذا تخلص الشفاعة له وحده في جمعية تنفي تدخل أحد.. ولا يملك الكل إلا أن ينتظر ما تنطق به المشيئة.

وتبقى بعض حالات مفوض أمر أصحابها في الآخرة إلى الله عز وجل وحده مثل هذه الآيات:

**(وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم)** (التوبة 102)

**(وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم والله عليم حكيم)** (التوبة 106)

ومنهم المستضعفون في الأرض يقال لهم: **(ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً، إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً.. فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً)** (النساء 97-99)

فهو وحده الذي يتكرم بهذه المغفرة، وهو وحده المفوض إليه في كل هذه الأمور.. وهذا معنى الآية.. **(لله الشفاعة جميعاً)**.

ويبقى السؤال عن المقام المحمود؛ ما هو؟ ومن يكون الموعود به في القرآن؟.. ومن كان المخاطب بهذه الآيات من سورة الإسراء؟:

**(وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذاً لا يبثون خلافك إلا قليلاً، سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلاً، أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً، ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً)**. (الإسراء 76-79)

والمخاطب هو محمد عليه الصلاة والسلام وحده لا سواه بلا شك.. ولا أحد منا يعلم موجبات هذا المقام المحمود ولا حدوده؛ فهو سر من أسرار الله، والجدل فيه هو جدل بغير علم، ولا نخوض فيه ونرى أن التفويض فيه اسلم.

ويذكر المفسرون أنه مقام الشفاعة العظمى، ولا نخوض معهم التزاماً منا بقول القرآن أن **(لله الشفاعة جميعاً)** وأن الله قال ذلك لأن جمعية الشفاعة كلها لله وحده كما ذكر القرآن وكرر في محكم آياته، وأنه لا يشرك في حكمه أحداً، وأنه لا أحد أعلم بخلقه منه ولا أرحم به منه.. فهو أرحم الراحمين، وليس لله منافس في هذا، ولا يجوز أن يكون له منافس.. ويؤكد ذلك القرآن مكرراً في آياته؛ أنه هو الذي أرسل رسوله للعالمين نذيراً وبشيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً..

ولم تذكر كلمة شفيع عن الرسول إطلاقاً..أقول ذلك اجتهاداً، والله أعلم؛ فالموضوع غيب.. ويوم الدين بأهواله وما سيجري فيه هو غيب الغيب، ولا يملك قارئ القرآن إلا أن يحاول الفهم دون المساس بالثوابت القرآنية.. وخصوصية المقام المحمدي من الثوابت التي لا شك فيها.. كما أن " خصوصية الشفاعة لله وحده؛ وأن جمعية الشفاعة ينفرد بها الله وحده" هي ثابت مطلق آخر من ثوابت القرآن لا مرية فيه.

وعلينا أن نفهم الشفاعة في هذه الحدود ولا نخرج عنها.

والقرآن هو الكتاب الوحيد الذي تولى رب العالمين حفظه بنفسه من أي تحريف، وقال في كتابه المحكم: **(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)** ولم يقل لنا رب العالمين أنه حفظ كتاب البخاري أو غيره من كتب السيرة.. وما يقوله البخاري مناقضاً للقرآن يسأل عنه البخاري يوم الحساب ولا نسأل نحن فيه.

ولم يكن البخاري رضي الله عنه وأرضاه هو الوحيد الذي خاض في موضوع السيرة النبوية، ولكن كتّاب السيرة كثيرون وقد تناقضوا واختلفوا بين بعضهم البعض.. وامتلأت كتب السيرة بالموضوع والمدسوس من الأحاديث والعجيب والمنكر من الإسرائيليات.

وقرأنا في أكثر من كتاب من كتب السيرة أن النبي عليه الصلاة والسلام مات ودرعه مرهونة عند يهودي، وهو كذب وافتراء لا يعقل، فقد مات سيدنا رسول الله والغنائم وخيرات البلاد المفتوحة تجبى من كل مكان، وللرسول ولفقراء المسلمين نصيب فيها؛ وله الخمس بحكم القرآن، وعثمان بن عفان الذي مول غزوة تبوك من ماله إلى جواره، فما حاجته إلى رهن درعه عند يهودي، إلا أن تكون فرية نكراء من افتراءات اليهود دسوها على كتّاب الحديث.

والقرآن يقول لرسوله:

**(ولسوف يعطيك ربك فترضى، ألم يجدك يتيماً فآوى، ووجدك ضالاً فهدى، ووجدك عائلاً فأغنى)**. (الضحى 5-8)

الله يقول بأنه أغنى رسوله.. فما حكاية هذه الدرع المرهونة عند يهودي إلا أن تكون إسرائيليات مدسوسة.. وغيرها الكثير.. فلا أقل من أن نحتكم إلى العمدة في أمور ديننا حتى لا تنفرط وحدتنا وحتى لا نتفرق بدداً

والعمدة المعتمدة في جميع أمور الملة هو القرآن المجيد نتمسك به ونحتكم إليه في كل صغير وكبير.. وما تناقض في كتب السيرة مع القرآن لا نأخذ به، فالذين كتبوا السيرة بشر مثلنا يخطئون ويصيبون.. أما القرآن فهو الكتاب المحفوظ من رب العالمين؛ وهو الكتاب الوحيد الموثوق بين كل ما تبقى من كتب مقدسة بين أيدينا؛ وهو المهيمن عليها جميعها بلا استثناء.

ألم يقل ربنا تبارك وتعالى لمحمد عليه الصلاة والسلام في سورة آل عمران الآية 128: **(ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم**

**ظالمون)** فكيف نقلب الأمر ونجعل من النبي صاحب الأمر يوم القيامة والمنفرد بالشفاعة يومها.. وهو الذي قال له ربه معاتباً.. ليس لك من الأمر شيء.

وحينما جاء البلاغ للنبي في سورة الشعراء:

**(وأنذر عشيرتك الأقربين)** (الشعراء 214)

ألم يبادر النبي فينادي على أهل بيته:

يا خديجة؛ إني لن أغني عنك من الله شيئاً.

يا فاطمة؛ إني لن أغني عنك من الله شيئاً.

يا فلان يا فلان.. ولم يدع أحداً من أهل بيته إلا أبلغه.

وهذا كلام السيرة وكلام كتّاب السيرة أنفسهم؛ أن النبي قد أخلى المسؤولية وتبرأ من الوساطة لأحد حتى لأعز الناس.. حتى لابنته الغالية ومهجة قلبه فاطمة.. فكيف جعلوا بعد ذلك من النبي وسيطاً يتشفع عند الله ليخرج من النار بعض من دخلها من أمته.. فيخرجهم ربنا من النار وقد امتحشوا من أثر جهنم أي تفحموا.

وكيف يقبل هذا الكلام ويوضع في كفة واحدة مع كلام الله المحكم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وكيف نقلب موازين العدالة في ذلك اليوم الذي تشيب لهوله الولدان، ونحولها إلى وساطات وشفاعات وتزكيات ونجعل من أنفسنا صفوة الأمم وخيرها على الإطلاق.

ولقد قال ربنا: **(كنتم خير أمة أخرجت للناس)** وجعل الخيرية قائمة ودائمة طالما أمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر.. فجعلنا نحن هذه الخيرية صفة مطلقة لنا، ثم جعلنا من أنفسنا المالكين ليوم الدين.. فجعلنا الله أذل الأمم وأضعفها وأضيعها وأفقرها وأقلها شأناً.

ونرجو أن نبدل من أحوالنا فيبدل الله من أقدارنا، وأن نتوب عن ذنوبنا ليتوب علينا.. إنه سبحانه نعم التّواب.

# ورأي من الأزهر

جاءتني ردود كثيرة على موضوع الشفاعة في مقالي السابق، اختار منها هذا الرد من الدكتور عبدالعظيم المطعني من جامعة الأزهر.

يقول الدكتور الفاضل: ..وردت في القرآن آيات تفيد نفي الشفاعة في الآخرة، وآيات أخرى تنص على إثباتها، ووردت أحاديث نبوية كثيرة تثبت الشفاعة ولا تنفيها.. وهذا الاختلاف الظاهري حمل بعض الفرق الإسلامية قديماً كالمعتزلة وبعض المفسرين حديثاً على القول بنفي الشفاعة في الآخرة مطلقاً.. ويضيف بعض الباحثين أموراً يراها مؤيدة لجانب النفي على الإثبات.. فيقول: إن إثبات الشفاعة في الآخرة مخالف للقرآن، وأنها لو حدثت لكانت نوعاً من المحاباة

والظلم والمحسوبية.. وهذه أمور نهى الله عنها في الدنيا؛ فكيف يسمح بوقوعها في الآخرة؟ حيث لا تجزى كل نفس إلا بما عملت.

والنظرة المتأملة تقول بغير ذلك فليست الشفاعة في الآخرة منفية نفياً مطلقاً، كما أنها ليست واقعة وقوعاً مطلقاً.. وورود بعض العبارات بين النفي والإثبات في القرآن والحديث ظاهرة واردة كثيرة الوقوع.. ولعلماء الأمة رضي الله عنهم مسالك عديدة في فهم هذا المنهج ومحامل يحملون عليها النصوص الشرعية التي بينها تعارض في الظاهر.. أما الأخذ بجانب وإغفال الآخر فيوقع أصحابه في الخطأ، ويفتح أبواباً للخلاف؛ الإسلام برئ منها.

والآيات التي جاء فيها نفي الشفاعة نوعان:

ما ورد فيها نفي الشفاعة نفياً مطلقاً وهي آية واحدة في قوله تعالى في سورة البقرة وهي آية 254 **(أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون)**

وما ورد فيه نفي الشفاعة نفياً مقيداً، ومنه الآيات الآتية: **(فما تنفعهم شفاعة الشافعين)** (المدثر 48)

والآية الثانية: **(ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع)** (غافر 18)

والنفي في الحالين هو نفي الشفاعة عن أهل الكفر والظلم (فهو نفي مسبب) وكذلك الشرك.

**(إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء)**

أما النفي المطلق في الآية 254 سورة البقرة؛ فمعناه عدم إمكان وقوع الشفاعة أصلاً لأنه لا أحد مأذون فيها.

أما الآيات التي ورد فيها جواز الشفاعة في الآخرة:

**(من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه)** (البقرة 255)

**(يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً)** (طه 109)

وهي آيات لا تنفي الشفاعة أصلاً، وإنما تربطها بالإذن للشافع والمشفوع فيه.

وليست الشفاعة محسوبية وإنما هي تكريم للشافع؛ ورحمة من الله للمشفوع فيه ممن يعلم الله أنهم من أهل الرحمة ومن أهل التقوى.

وبهذا يقف الدكتور عبدالعظيم المطعني موقفاً معتدلاً بين النفي مطلقاً وبين الإباحة مطلقاً؛ بأن يجعل الشفاعة مشروطة وليست نهباً لكل من يطمع فيها.. كما أنه يحول دون هذه الاتكالية التي يرتاح إليها كل مسلم؛ فيتصور أنه من أهل الجنة مهما فعل.. وكيف يدخل النار ومعه الشفيع الأعظم الذي لا ترد شفاعته.. وهي اتكالية أوردت بهذه الأمة إلى حتفها.

ولا شك لأن الدكتور المطعني على حق لسبب آخر مهم.. هو أن موضوع الشفاعة وتفاصيل ما سيجري فيها والآخرة وأسرارها وحسابها.. هي أمور غيبية لا يستطيع أحد أن يقطع بما سيحدث فيها تفصيلاً.

والقطع في هذه المسائل مستحيل والتعصب فيها إلى جانب دون الآخر هو تطاول بغير علم؛ خاصة إذا جاء القرآن بنفي الشفاعة في بعض آياته؛ وجاء بجوازها في آيات أخرى.

والمرجع الوحيد الحق هو الله وحده في الحالين.. ولا أحد يعلم بمشيئته.. كما أنه لا سلطان لأحد على هذه المشيئة بحال.. ولا أحد يعلم هل سيأذن أو لا يأذن.

والحكمة القرآنية في هذا التعتيم في قضية الشفاعة.. أن الله أراد لنا أن نعيش على حذر عظيم وعلى خوف عظيم طول الوقت من هذا اليوم، وأن يخلق فينا برحمته مشاعر التقوى التي هي درعنا الوحيد الذي ستحفظنا من التردي.

ويجول بذهني موضوع الآخرة والحساب والجنة والجحيم وأهوال القيامة وأنا أطالع في التلفزيون مشاهد الشتات والتهجير والتجويع والمطاردة لتسعمائة ألف من مطاريد كوسوفا، والأمهات تبكي والأطفال كالتماثيل المشدوهة تحملق في الفراغ في رعب؛ وأتساءل:

أيخطر بذهن هذا الرجل المجنون ميلوسوفيتش فكرة الآخرة والحساب، أم يظن في عمى التعصب أنه سوف يكافأ على طرده للمسلمين الكفرة وتطهيره للأرض من أرجاسهم.. وأنه سوف يؤجر على عماه بالجنة؟.

إن الرجل مسيحي أورثوذكسي.. وقد فعل الكاثوليك في أسبانيا عند سقوط الحكم الإسلام بالمسلمين أسوأ بكثير مما فعل.. فقد أحرقوا المسلمين أحياء.

وهذه هي أوروبا التي تتشدق بحقوق الإنسان والتسامح الديني والعلم والحرية والفن والثقافة الرفيعة.

هل يعلمون ما فعل صلاح الدين الأيوبي القائد المسلم بالملك الصليبي حينما سقط في يده أسيراً، وكيف أحسن وفادته وعالجه وأطلق سراحه؟.

وهل يعلمون بما فعل القادة المسلمون بكسرى يزدجرد بعد سقوط فارس..؟ لقد تزوج كبار القادة من بناته.. لم يأسروهن ولم يغتصبوهن.

وهل سمعوا أو تسامعوا بوثيقة الأمان التي كتبها النبي صلى الله عليه وسلم لرهبان دير سانت كاترين؟ والتي أمنهم فيها على حياتهم وعلى أملاكهم وعلى حرياتهم وعلى أداء شعائرهم.

وهؤلاء هم العرب المتوحشون والبدو الأجلاف كما يصفهم أهل أوروبا.

من هو الجلف الحقيقي بين هؤلاء.

إني لا أرى في أوروبا علماً ولا حضارة.. بل أرى قشرة براقة وظاهراً خلاباً يخفي وراءه حقيقة خنزيرية ونزوات بهيمية ورغبات محمومة في السيادة والسيطرة.

إنهم صناع الموت..

هم الذين صنعوا القنابل النووية والقنابل الجرثومية والغازات السامة وأسلحة الدمار الشامل.. وهم الذين ابتدعوا تشويه الطبية بالهندسة الوراثية.

وهم الذين لوثوا الهواء بالعوادم والأنهار بالمبيدات.

إنهم يتقنون صناعة الموت لأن شاغلهم الوحيد أن يسودوا ويغلبوا ويحكموا ويستغلوا ويستعبدوا.

وأول ما نزل المستعمرون منهم أفريقيا كان همهم الأول خطف العبيد وترحيلهم في السلاسل، 15 مليون عبد رحّلوهم في السلاسل وشحنوهم في البحر إلى أمريكا وإنجلترا.

وهؤلاء العبيد هم الذين بنوا أمريكا وإنجلترا.. وعاشوا وماتوا خدماً باللقمة.

وهتلر وموسيليني وفرانكو وسالازار ولينين وستالين وميلوسوفيتش وميلادتش وكارادتش (سفاح البوسنة) هي قبيلة الشياطين والمردة التي انطلقت كالرياح السموم تأكل في طريقها الأخضر واليابس.

هؤلاء طلائع حضارتهم.

وأعود فأطالع ثمار تلك الحضارة وحصادها.. ذلك الطراد المؤلم الذي يجري على أرض كوسوفا ومئات الألوف.. تسعمائة ألف من النساء والأطفال والعجائز يهرولون أمام موت زاحف..ولا مجير ولا منقذ من قذائف المدافع التي تطاردهم كالمطر.

أمريكا تضرب الصرب من الجو.. فيرد ميلوسوفيتش الضرب مضاعفاً على أهالي كوسوفا على الأرض.. وليس في خطة أمريكا إنقاذ المسلمين، وإنما هدفها إعلان السيادة على أوروبا بأي ثمن.

ولا أحد يفوز بالسيادة سوى الموت والدمار.

وتجري حرب العماليق في الجو.. ويجري القتل عن بعد.. ويقتل الطيار أطفالاً لا يعرفهم.. ويتوالد هذا الجنون كما يتوالد البعوض في المستنقع الآسن.. ليلد كل يوم جنوناً أشد.. وتلقي أمريكا كل يوم بأسراب جديدة من الطائرات في ساحة القتال.

وتدور الحلقة المفرغة.. وتأخذ الجميع السكرة.. ولا أحد يفكر في أن الموت يلاحقه.. ولا أحد يفكر فيما بعد هذا الموت.. ولا أحد يفكر في وقفة الحساب.

ويؤمن المسيحي بأن المسيح قد افتدى الخطائين بدمه على الصليب.. وأنه الفادي لكل البؤساء في الأرض.. ويؤمن المسلمون بأن الذي صلب لم يكن هو المسيح، وإنما شبه للموجودين أنه هو هو: **(وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم)** (النساء 157)

**(وما قتلوه يقيناً، بل رفعه الله إليه)** (النساء 157-158)

وذلك غاية التكريم.

أما المادي والعلماني والمنكرون والملحدون من كل ملة وهم الأكثرية فلا يؤمنون بشيء ولا يرون أن وراء الدنيا شيئاً ولا يخشون بعثاً ولا حساباً ولا نشوراً.. ومن يمت عندهم سوف يشبع موتاً فليس وراءنا ولا أمامنا إلا دنيا واحدة نأخذها غلاباً أو تضيع علينا.. ومن يهلك منهم فلا شفاعة فيه ولا نجاة له.

وتبقى المفاجأة الكبرى حينما ينجلي كل هذا الضباب ساعة الحشرجة.. حينما تتجلى الحقيقة ويكتشف الميت أنه لم يمت وأنه سوف يواجه أعماله.. ولن تساوي أمجاد الدنيا وانتصاراتها ساعتها شيئاً.. وسوف يسيطر على النفوس ساعتها رعب بلا حدود.

هل سيجد ميلوسوفيتش ساعتها الشفيع الذي يشفه له.!! والمسيح الذي سوف يفتدي جرائمه بدمه.. وماذا سيفعل حينما يعلم أن مسيحه لم يقتل وأنه لم يكن هناك دم أريق ليفتدي به أحداً.

لقد أراحوا أنفسهم في أوروبا من هذه الأسئلة.. أما عندنا في مصر فالميزان والحساب مرسوم على كل حجر ومنقوش في كل قلب من آلاف السنين.. وشاغل المصري طوال حياته كان وقفة الحساب.. هذا هو تراثنا القديم من قبل اليهودية والمسيحية والإسلام.. وبرديات كتاب الموتى في الأهرام هي بقايا صحف النبي إدريس.

نحن أرض النبوات والرسالات القديمة.. والدين عندنا هو حشوة حياتنا ولبها ولبابها.. ومن أجل هذا سبقت حضارة مصر كل الحضارات.. وسوف يحرسنا هذا الخوف المقدس إلى يوم يقضي الله لهذه الدنيا بالفناء.

وكل هذه الإشكالية والضبابية في قضية الشفاعة والتعتيم القرآني في الأذن بها وعدم الإذن بها وفي جعل جمعية الشفاعة كلها في يد الله وحده.. كل هذا من أجل أن تبقى شعلة هذا الخوف المقدس الذي سوف يحرس أفعالنا في حياتنا الدنيا إذا كنا مؤمنين.

إنما يريد الله أن تكون لنا الجنة.

فهل نحن في مستوى هذا الحب؟.

وهل سوف نثبت أننا جديرون بهذه الرحمة؟.

# الردود الغاضبة والعاتبة

الردود الغاضبة والعاتبة على موضوع الشفاعة بالمئات.. وأنا لم أفهم سبباً واحداً لهذا الغضب، فالله بكرمه وحلمه فتح لنا باب التوبة لنتوب عن ذنوبنا ونتطهر من أوزارنا، وجعل هذه التوبة ممدودة إلى النفس الأخير فلا يغلق بابها إلا ساعة الحشرجة.

ومن عجب أن جعل الله هذه التوبة تجب كل الذنوب حتى كبيرها؛ بل حتى الشنيع منها، واقرأوا معي سورة البروج؛ وحديث رب العالمين عن الجبارين الذين أحرقوا المؤمنين وهم قعود على النار الموقدة.. يقول ربنا في قرآنه:

**(قتل أصحاب الأخدود، النار ذات الوقود، إذ هم عليها قعود، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود، وما نقوا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد، الذي له ملك السموات والأرض والله على كل شيء شهيد، إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق)** (البروج 4-10)

والمعنى واضح أن هؤلاء الجبابرة لن يعاقب منهم على تلك الشناعات التي ارتكبوها إلا الذين لم يتوبوا، وأن الله بحلمه وكرمه جعل توبة هؤلاء المجرمين مقبولة.. حتى هذا الصنف من عتاة المجرمين يقبل ربنا توبته.. ولم يشترط ربنا لقبول هذه التوبة وساطة.. وإنما سوف يقبلها قابل التوب وغافر الذنب بجوده وكرمه.. وقال في محكم كتابه: **(قل لله الشفاعة جميعاً)**.

ماذا يراد من رب الجود والكرم أكثر من هذا؟!.

وهل يريد الغاضبون والعاتبون أن يفعلوا ما يشاءون من الذنوب والخطايا ويسترسلوا في ذنوبهم وآثامهم وشرورهم إلى آخر العمر، ثم يموتوا دون توبة ويلفظوا أنفاسهم دون ندم، ثم يريدون ساعة البعث أن يستقدموا رسولهم ليشفع لهم.. فإذا قلنا لهم ضيعتم فرصتكم الوحيدة في التوبة في حياتكم.. ضجوا واحتجوا ورمونا بالجهل، وجاءوا بعشرات الأحاديث لعشرات من الرواة يقولون هذا وذاك من عجيب القول.

ولا سلطان عندنا في مثل هذه الأمور الغيبية إلا لكلمة القرآن فهو الكتاب الوحيد الذي تولى ربنا حفظه بنفسه وقال: **(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)**.

هل أخطأنا؟!!.

أم المخطئون هم.. وقد كانت أمامهم الفرصة في حياتهم ليتوبوا فلم يتوبوا.

وفتح الله لهم باب التوبة إلى ساعة الحشرجة فلم يعبأوا ومضوا في غيهم يعمهون.

إني لا أرى مكاناً لاختلاف ولا موضوعاً لاشتباك.. وإنما كل منا يعمل بإيمانه وكل فريق يعمل على شاكلته، فالموضوع لا يصلح فيه الجدل فهو موضوع غيبي يتناول الآخرة.. والآخرة لله وحده يفعل فيها ما يريد فهي شأنه.. وعلينا أن نسمع ونؤمن: **(لمن الملك اليوم لله الواحد القهار)** لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه.. هو وحده صاحب الكلمة في ذلك اليوم.. لم يتخذ له وكلاء ولا مساعدين.

وربنا تبارك وتعالى هو مالك يوم الدين كما نقرأ في فاتحة الكتاب في كل صلاة.

أما هواة الجدل فعلى رسلهم.. فهم سيتكلمون إلى آخر الدهر دون جدوى.

وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً.

ولسنا أقل منهم إجلالاً وإكباراً لمقام سيدنا رسول الله فهو في أعيننا ولكن الله وضع الحدود لكل شيء في قرآنه.

ونعود فنسأل؛ ولماذا لم يتب هذا المذنب وكانت فرصة التوبة ممتدة أمامه طوال عمره؟ وأي عدالة الآن في أن يستقدم رسوله ليجد له مخرجاً من إثمه وكان المخرج أمامه طول الوقت.. ورسولنا العظيم أول من يعلم بمقام الهيبة الإلهية.. وبعظمة الجناب الإلهي.. هيهات.. إنما هي شعرة يتمسك بها المذنبون والمجرمون، وأحلام يتعلق بها كل من قعدت به همته عن الطاعة.

ونحن لا نريد عذاباً لأحد.. ونحن مثل غيرنا أهل ذنوب ونلتمس المخـــرج من أهوال هذا اليوم.. ولكن القرآن لا يفتح لنا باباً إلا ويسده، فهو يقول:

**(ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له).** (سبأ 23)

وهو كلام عن الملائكة.. ولكن ماذا يقول القرآن بعد ذلك: **(حتى إذا فــزع عن قلوبهم** (لهول الموقف) **قالوا** (أي قال الملائكة) **ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير).**

إذن لا معدى في هذا اليوم (يوم الفزع الأكبر) عــن الحــق.. ولا إذن إلا بالحق.. وفي مكان آخر يقول عن الملائكة:

**(ولا يشفعون إلا لمن ارتضى).** (الأنبياء 28)

وبذلك عاد فأغلق الباب وجعله مقصوراً على أهل الرضـــا أي المرضـــي عنهم.. وهو تحصيل حاصل.. فالمرضي عنهم ناجون بحكم ما فعلوا في حيـــاتهم من خير، والحسنات كما يقول القرآن يذهبن السيئات.. وما زلنا ندور فـــي حلقـــة مفرغة تبدأ من الحق وتنتهي إلى الحق.. ولا معدى في هذا اليوم عـــن الحـــق.. والشفاعة المأذون أصحابها هي شفاعة مشـــروطة.. والله ســـوف يحكـــم بنجـــاة أصحابها لأن هذا حقهم في الكتاب.. وحظ الملائكة فيها هي تشريفهم.. وحظ كـــل من يقوم بهذه الشفاعة هي تشريفه فهو الذي سوف يقوم بالتهنئة ويضـــع النيشـــان على صدر صاحب النصيب، ولكن هذا النصيب هو لا شك واصل لصاحبه لأنـــه حقه، وهذا يوم الحق الذي لا يتم فيه شيء إلا بالحق.. أما أحباب الله فلهم عنده في ذلك اليوم الحسنى وزيادة.

وأنا أعجب من الرافضين والمستنكرين، فأنا مثلهم من أهل الذنوب ومحتاج لقشة أتعلق بها في هذا اليوم الذي تشيب من هوله الولدان، ولكني لا أســـتطيع أن أخدع نفسي ولا أستطيع أن أحرف معاني الآيات القرآنية لأخرج منها بما يرتـــاح له قلبي ويشفي فزعي، فإن الحق أحق بأن يقال وأولى بـــأن يتبـــع وإن كـــان لا يصادف الهوى.

وعلينا أن نواجه هذه الحقيقة المؤلمة.. يوم لا تجزي نفس عن نفس شـــيئاً ولا تنفعها خلة ولا شفاعة.. والله يربط هذا القانون باسمه الإلهي في سورة السجدة فيقول:

**(الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثـــم اســـتوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون).**

ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع، والنفي هنا قطعي لأي نوع من ولي أو شفيع.

هذا القطع الذي يرتجف له القلب فزعاً وهولاً.. والـــذي لا نملـــك لـــه إلا السجود مبتهلين أن يفتح لنا الله بكرمه وفضله باباً للتوبة.. ماذا نملـــك أمامـــه؟!! سوى الاستغفار وطلب العفو والصفح والعزم على التطهر من كل إثم وعلى عـــدم العودة إلى المخالفة أبدا.

وهل خرج قادة الإسلام الأوائل وأبطاله إلا من هـذه المشـكاة؟.. مشـكاة القرآن وما كان على أيامهم كتب سيرة ولا رواة سيرة ولكـنهم كـانوا يشـهدون السيرة بأعينهم من معينها الحي؛ من النبي نفسه الذي كـان يخـرج معهـم فـي غزواتهم.. وكان كل واحد فيهم نموذجاً ومثالاً.. وكان كل واحد مـنهم أمـة فـي رجل.

والآن وقد ترخى بنا الزمن وأصبحنا نقرأ عن وعن وعن.. إلى آخر هـذه العنعنات التي لا يعلم بها إلا الله.. واختلف أهل هذه العنعنات.. والقرآن بين أيدينا لا اختلاف فيه وآياته المحكمة كالسيف تقطعنا عن أي شك.

وما أحب أن يقول رسولنا لربه يوم القيامة: يا رب إن قومي اتخذوا هـذا القرآن مهجوراً.

وما أحب أن نهجر المشكاة ونبع القوة التي خرج منها أوائل هـذه الأمـة فنقطع عن أنفسنا الإلهام والمدد.. والتأريخ يهتف بنا طول الوقت.. إن عدتم عدنا.

إن عدتم إلى إيمانكم عدنا إلى نصرتكم.

فهلا جمعنا العزم على أن نعود.

وهلا جمعنا العزم على أن نرجع إلى دستورنا وقرآننا ونتعاهد معاً على أن نتمسك به إلى آخر يوم في حياتنا.

وأضعف الإيمان أن نتدبر آيات القرآن الكريم ولا نغلق باب الاجتهاد فـي فهمها أبداً، فكل كتاب يؤخذ منه ويرد إلا هذا الكتاب فهو خزينة العلم كلـه ومـا أضر بالإسلام والمسلمين إلا إغلاقهم لباب الاجتهاد في دينهم وتحويلهم لمرويـات السيرة إلى مسلمات ومقدسات ومحظورات لا تمس ولا تناقش كأنهـا مومياوات محنطة.

وما حفزني على الكتابة في موضوع الشفاعة إلا حديث رسـولنا العظـيم الذي قال فيه: من يترك العمل ويتكل على الشفاعة يورد نفسه المهالك ويحرم من رحمة الله.. كان خوفي من هذه الاتكالية هو حافزي الأول والأخير ونحـن أمـة المتواكلين.

وما كتبت ما كتبت إلا اجتهاداً ولا ادعـي العصـمة، والله وحـده أعلـم بالصواب، فإن أصبت فبهديه إن أخطأت فمن نفسي.. هو وحده أهل التقوى وأهل المغفرة.

ومن أفضل الردود التي جاءتني هو هذا الرد القيم من الدكتور عبد العظيم المطعني الأستاذ بجامعة الأزهر وهو يهدينا إلى مخرج مأمون من هـذه القضـية الخلافية الشائكة في موضوع الشفاعة.

ويؤمن الدكتور المطعني أن الشفاعة حقيقة قرآنية ثابتة لا شك فيها ولكنهـا مشروطة وليست مطلقة بدون ضوابط.. فهي لا تجوز لكافر ولا لمشـرك.. فـلا يصح لمحمد عليه الصلاة والسلام أن يشفع في أبي جهل، ولا موسى أن يشفع في السامري، والآيات التي قالت عن بعض أهل النار: **(ومـا هـم بخـارجين مـن**

**النار)**(البقـرة 167) تتحدث عن كفرة لا تنفعهم شفاعة.. فهي لا تنفي الشفاعة وإنما تؤكد على شروطها.

وأول شروط الشفاعة.. الإذن الإلهي:

**(ما من شفيع إلا من بعد إذنه)** (يونس 3)

**(من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه)** (البقرة 255)

**(يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً)** (طه 109)

**(ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له)** (سبأ 23)

والأذن يكون للشافع وللمشفوع فيه ولموضوع الشفاعة.

وبهذا لا يعود هناك تناقض بين شفاعة الشفعاء وبين المشيئة الإلهية ويتأكد أكثر معنى الآية **(لله الشفاعة جميعاً)** فلن توجد إرادة في العفو سابقة على إرادته.

وأيضاً تنتفي عن هذه الشفاعة صفة الوساطات والتزكيات التي نعرفها في الدنيا في أنها لن تتخطى الحق ولن تتجاوز العدل لأنها لن تصدر إلا بإذن من الحكيم العليم بالسر وأخفى.. لا ملائكة ولا رسل ولا شهداء ولا صديقين.. وإنما إرادة الله وحده.. فهو إذا أذن بها كانت، وإن لم يأذن بها لم تكن.. فهو وحده مالك أمور الشفاعة كلها .. وليس في حاجة إلى مساعدين فهو خالق كل شيء من عدم وحده.. وإنما أراد بالشفاعة أن تكون تشريفاً للشافع ورحمة للمشفوع فيه.. وأولى الناس بهذا الشرف هو النبي الخاتم محمد عليه الصلاة والسلام لا جدال.

أما الأحاديث النبوية ومرويات السيرة فلا ينكر الدكتور المطعني أن فيها الحديث الضعيف وفيها الدخيل والعليل والمكذوب وكل هذا مصنف ومعروض ومدروس ويخضع للنقد في كتب الحديث والسنة ولا يدعونا في مجمله إلى الاكتفاء بالقرآن باعتباره الأكثر مصداقية والمحفوظ من الله، فالله يقول في قرآنه:

**(وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم)** (النحل 44)

وتبيين الرسول هو أقواله وأفعاله وأخلاقه وسلوكه.. ورفض السنة يفتح الباب لفتن لا آخر لها.. ويهدم أصل الدين كله.. فهل عرفنا الصلاة وإقامتها والزكاة ومصارفها والحج وشعائره إلا من السنة.. ولو اكتفينا بالقرآن لما عرفنا شيئاً من هذا.

والدكتور المطعني له حق في مخاوفه، وهو كعادته يقدم فهماً مقبولاً وحلاً للإشكالات التي تعترض قارئ القرآن حينما يرى الآيات القرآنية تنفي الشفاعة في مكان وتثبتها في مكان آخر.. فالشفاعة لا تأتي في القرآن مطلقة بل تأتي مقيدة بالإذن ولها ضوابط وشروط.. فإذا لم تتوفر الشروط ولا الضوابط فلا إذن.. والله وحده مصدر الإذن.. وهنا سر الإشكال.

والقرآن ككل؛ مضافاً إليه السنة ككل؛ ضروريان معاً لفهم الدين.. ولفهم هذه القضية بالذات.. وأضيف للإشكالية جانباً آخر.. هو أن موضوع الشفاعة غيبي، ومكانها وزمانها يوم القيامة.. ولا أحد يستطيع أن يدعي الإحاطة بما

سيجري في هذا اليوم.. ولا نملك بعد استعراض القرآن والسنة إلا الاجتهاد في الفهم.. واحتمال الخطأ وارد.

والاختلاف على المقام المحمود يحسمه القرآن، فقد قال القرآن: إننا أمة وسط، وإننا شهداء على الناس، وإن الرسول شهيد علينا، وإنه هو الرسول الخاتم، وإن الكتاب الذي جاء به (مهيمناً على كل الكتب).

وليس عجيباً أن يكون صاحب كل هذا هو المأذون في الشفاعة، وأن هذا هو مقامه الرفيع والمحمود.. ولكن العلم عند الله ولا نستطيع أن نقطع بشيء.

وهذا لا يتناقض مع الآية المحكمة **(لله الشفاعة جميعاً)** لأن الله فوق الكل وصاحب الإذن، وبدونه ما كانت لتكون هناك شفاعة على الإطلاق.. وهو رأي وجيه يحاول التوفيق بين كل الفرقاء والله أعلم بصوابه.. والخوض في الموضوع يورد المهالك.

وقد اتسعت صدور القراء للكثير في موضوع علمنا فيه قليل.. وتبادل الاتهامات والتراشق بالجدل سوف يسلمنا إلى جهالات نحن في غنى عنها.

ونكتفي بما قلناه مؤثرين الإيمان على الجدل والتفويض على تبادل التهم.. فبحور العلم بلا شاطئ وأعماقها بلا أغوار، والله وحده هو الهادي ونسأله المغفرة.

# رأي الشيخ المراغي
# ورأي الشيخ محمد عبده

جاء في تفسير الشيخ المراغي الجزء الأول.. هناك مسألة كثر فيها خوض الناس وأطالوا الجدل والأخذ والرد؛ وهي مسألة الشفاعة العظمى.. شفاعة النبي عليه الصلاة والسلام لأمته يوم القيامة.. ويقول الشيخ فيها: جاء في القرآن الكريم آيات تفيد نفيها مطلقاً، ومن ذلك قوله تعالى في وصف يوم القيامة: **(لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة)** وآيات تفيد ثبوتها وتشترط إذنه سبحانه، ومن ذلك قوله: **(يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه)** وقوله: **(ولا يشفعون إلا لمن ارتضى)**.

من أجل هذا افترق العلماء فرقتين.. أولاهما: تثبت الشفاعة وتحمل ما جاء من الآيات في نفيها مطلقاً على ما جاء بتقييدها بشرط الإذن.. والثانية: تنفيها مطلقاً وتقول: إن معنى **(إلا بإذنه)** هنا النفي؛ وهذا أسلوب معروف لدى العرب في النفي القطعي كقوله: **(سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله)** وقوله: **(خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك)**.

وإذن ليس في القرآن نص قاطع في ثبوتها.. ولكن جاء في السنة الصحيحة ما يؤيد وقوعها كقوله صلى الله عليه وسلم: (شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي).

ويقول الشيخ المراغي: إن الشفاعة المعروفة في دنيانا لا تكون إلا بترك الحاكم لما حكم به وفسخ لما عزم عليه لأجل الشفيع، والحاكم العادل لا يقبل الشفاعة بهذا المعنى ويقبلها الحاكم المستبد فيعدل عن حكمه بما يعلم أنه ظلم وأن

العدل بخلاف ما حكم.. ومثل هذا محال في الآخرة على المولى جل وعلا لأن إرادته بحسب علمه الأزلي لا تغيير فيها ولا تبديل.. ويكون معنى هذا أن ما ورد في الأحاديث يكون من "المتشابه" الذي يرى فيه السلف وجوب التفويض فيما لا نعلم، وننزه الله عن الشفاعة التي نرى أمثالها في الحياة الدنيا.. وغاية ما نستطيع أن نقول: إنها مزية يختص بها الله من يشاء من عباده عبر عنها بلفظ شفاعة ولا ندرك حقيقتها.

ويرى شيخ الإسلام "ابن تيمية" أنها دعاء يدعوه النبي عليه الصلاة والسلام فيستجيبه المولى جل وعلا.. وليس في الشفاعة بهذا المعنى رجوع المولى عن إرادته لأجل الشافع وإنما هي إظهار كرامة للشافع وليس فيها ما يغري ضعاف النفوس الذين يتهاونون في أوامر الله ونواهيه اعتماداً على الشفاعة.

ويقول الشيخ المراغي عن يوم الحساب:

إن ذلك يوم تنقطع فيه الأسباب، وتبطل منفعة الأنساب، وتتحول فيه سنة الحياة من دفع المكروه عن النفس بالفداء أو بشفاعة الشافعين، وتضمحل فيه الوسائل إلا ما كان من إخلاص في العمل قبل حلول الأجل، ولا يتكلم فيه أحد إلا بإذن الله.

وفي تفسير المنار للشيخ رشيد رضا، وفيه نقرأ آراء الشيخ محمد عبده وفلسفته.. وفيه يقول الشيخ: ما الذئاب الضارية بأفتك بالغنم من فتك الشفاعات في إفساد الحكومات والدول، فإن الحكومة التي تروج فيها الشفاعات يعتمد التابعون لها على الشفاعة في كل ما يطلبون لا على الحق والعدل، فتضيع فيها الحقوق ويحل الظلم محل العدل ويسري ذلك من الدولة إلى الأمة فيكون الفساد عاماً.

وقد نشأنا في بلاد هذه حال أهلها، يعتقد الجماهير فيها أنه لا سبيل إلى قضاء مصلحة في الحكومة إلا بالشفاعة والرشوة.

ويقول الشيخ: وهذا مما يستحيل على الله عز وجل.. فأفعال الله تابعة لحكمته وعلمه وسائر صفاته الأزلية القديمة التي يستحيل أن يطرأ عليها تغيير أو تبديل.. وهذه الشفاعة التي يتعلق بها السفهاء قد نفاها الله تعالى في الكثير من آياته:

**(يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون).** (البقرة 254)

وهم الكافرون بنعم الله عليهم إذ لم يضعوها في مواضعها، وبخلوا بها على مستحقيها.. وليس الكافرون هنا هم منكرو الألوهية.. وإنما أهل الشح والبخل.

هكذا كان رجال الدين والعلماء في الماضي يفسحون صدورهم وعقولهم حينما تختلف الأقوال والأفهام في مواضيع شائكة مثل الشفاعة.. وما كانوا ليتقاذفوا بالتهم ويبادروا بالمهاترات.. كما رأيناه يحدث في خطب الجمعة في أكثر من جامع وعلى أكثر من منبر.

وقد تطابق رأي الشيخ المراغي مع أكثر ما قلناه وهو شيخ الجامع الأزهر في زمانه والعالم والفقيه المتمكن في مادته.. وما نطقنا إفكاً.. وما ردّدنا بدعة.. والخلاف في الموضوع قديم ومعروف.. والسؤال:

ماذا حدث للمناخ الديني في بلدنا..؟! بل ماذا جرى للعلم والاجتهاد..؟ ولماذا ضاقت الصدور وفرغت العقول؟ ولم يبق إلا الماهترات وتبادل التهم من على المنابر.

ويوم القيامة غيب.. وطبيعي أن تختلف بشأنه الأفهام.

والدين شأن عام وليس حكراً على أحد دون أحد ولا لعقل دون عقل.

ولا يوجد دين منفتح على الاجتهاد مثل الإسلام.

والقرآن معجزة في تجدد عطائه..وهو يبوح بالجديد في كل عصر.

افتحوا النوافذ يا إخوة وجددوا هواء الفكر الذي ركد.

إن التساؤل الرباني ما زال يحثنا منذ ألف وأربعمائة عام على التفكير والتدبر: **(أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها)**.

فهلا تدبرنا آيات كتابنا.

ونحن ما أنكرنا الشفاعة، وإنما حاولنا أن نفهمها في الإطار الذي يليق بالألوهية، وحاولنا أن نخرجه من المفهوم السوقي الذي يشيع في الشفاعات والوساطات الدنيوية ورأيناها مشروطة بالإذن الإلهي.. ورآها شيخ الإسلام ابن تيمية دعاء يدعوه النبي فيستجيبه المولى، ورآها غيره توسلاً وابتهالاً من الرسول لتخفيف أهوال المحشر.. ولم ير فيها أحد من المفسرين رجوعاً للمولى عن حكمه من أجل الشافع، فهذا محال في حق الله، وإنما رآها المؤمنون بها تشريفاً للشافع ورحمة ثابتة في علم الله القديم.

واختلفت الأفهام؛ ومن حقها أن تختلف لحرصها على تنزيه مقام الألوهية.

ولو احتكم القراء إلى العقل إلى حسن الظن الواجب بين المؤمنين لما هاجوا كل هذا الهياج ولما غرقت المنابر في كل هذه المهاترات.

أما وقد تعددت التفاسير الآن وتعددت وجهات النظر بين هذه الباقة المنتقاة من شيوخ الإسلام وعلمائه.. القدامى منهم والمحدثين.. فإنه لم يعد هناك ما يدعو لكل هذا الانفعال والضجيج.

هدوءاً يا سادة.. وليختر كل منكم الفهم الذي يروق لعقله من هذه الباقة، ولنفوض جميعاً الأمر إلى الله.. فالقيامة وما سيجري فيها غيب محجوب لا نستطيع أن ندعي نحن ولا أنتم العلم بتفاصيله.

ولنذكر الحديث النبوي الشريف الذي قال فيه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((**لا يدخل أحدكم الجنة بعمله**)) **قالوا: (حتى ولا أنت يا رسول الله) قال: ((حتى ولا أنا؛ إلا أن يتغمدني الله برحمته))** وهذه الرحمة التي سوف يدخل بها المؤمنون الجنة هي أقرب ما تكون إلى مفهوم الشفاعة.. فهي هبة إلهية لا علاقة لها بالعمل.. ولا غرابة في أن يدعو إلى هذه الرحمة نبي الرحمة الذي ذكر اسمه في القرآن مقروناً بالرحمة **(بالمؤمنين رؤوف رحيم)**. (التوبة 128)

رسولنا وسيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام..
ونسأل الله لنا ولكم حسن الختام.

# ليس إنكاراً للسنة

القرآن هو خزينة العلم الإلهي القديم الذي يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو العمدة في كل حقائق الدين والمرجع الوحيد في أمور الغيب والحساب والقيامة والآخرة.. أنزله الله الذي ليس كمثله شيء؛ فكان على مثاله كتاباً ليس كمثله كتاب.. لا يرتفع إلى ذروة مصداقيته كتاب، ولا يبلغ مدى حجيته مقال، فهو منفرد في صدقه وإحاطته وإعجازه.

أما السنة القولية التي جمعها رواة الأحاديث عن الرسول الكريم فقد جمعها ودونها بشر آخرين غير معصومين نقلوها عن بشر آخرين غير معصومين في سلسلة من العنعنات عبر عشرات السنين (لم تدون الأحاديث إلا من بعد زمن الخلفاء الراشدين على أيام سلاطين القصور).

وقد أجمع رواة الأحاديث على أن النبي عليه الصلاة والسلام قد نهى عن تدوين الأحاديث، وجاء هذا النهي في أكثر من حديث لأبي هريرة وعبدالله بن عمر وزيد بن ثابت وأبي سعيد الخدري وعبدالله بن مسعود وغيرهم.. وفي كلمات أبي هريرة يقول في قطعية لا تقبل اللبس: (**خرج علينا الرسول ونحن نكتب أحاديثه**) **فقال:** ((**ما هذا الذي تكتبون؟**)) **قلنا:** (**أحاديث نسمعها منك يا رسول الله**) **قال:** ((**أكتاب غير كتاب الله؟!**)) **يقول أبو هريرة:** (**فجمعنا ما كتبناه وأحرقناه بالنار**).

وأبو هريرة نفسه هو الذي قال في حديث آخر: (**بلغ رسول الله أن أناساً قد كتبوا أحاديثه؛ فصعد المنبر؛ وقال:** ((**ما هذه الكتب التي بلغني أنكم قد كتبتم؟ إنما أنا بشر فمن كان عنده شيء منها فليأت بها**)) **يقول أبو هريرة:** (**فجمعنا ما كتبناه وأحرقناه بالنار**).

وهو نفسه صاحب الحديث المتفق على تواتره: ((لا تكتبوا عني غير القرآن، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه)).

وفي رواية لأبي سعيد الخدري قال: (استأذنت رسول الله عليه الصلاة والسلام أن أكتب حديثه فأبى أن يأذن لي).

أما عبدالله بن عمر فقال: (**خرج علينا رسول الله عليه الصلاة والسلام يوماً كالمودع وقال:** ((**إذا ذهب بي فعليكم بعدي بكتاب الله أحلوا حلاله وحرموا حرامه**)) انظر "مسند ابن حنبل".

وأبوبكر أول الراشدين روت عنه ابنته عائشة: (**جمع أبي الحديث عن رسول الله؛ وكان خمسمائة حديث، فبات ليلة يتقلب كثيراً فلما أصبح قال:** (**أي بنيه هلمي بالأحاديث التي عندك، فجئته بها، فدعا بنار وأحرقها**) انظر "الذهبي تذكرة الحفاظ" ج1 ص5.

أما ثاني الخلفاء الراشدين عمر بن الخطاب.. فقد صعد المنبر وقال: (**أيها الناس بلغني أنه قد ظهرت في أيديكم كتب، فأحبها إليّ أحسنها وأقومها، فلا يبق أحد عنده كتاباً إلا أتاني به فأرى رأيي فيه) فظن الناس الذين كتبوا عن رسول الله عليه الصلاة والسلام أنه يريد أن ينظر فيها فأتوه بكتبهم فجمعها وأحرقها.. وقال: (أهي أمنية كأمنية أهل الكتاب) ثم كتب إلى الأمصار من كان عنده من السنة شيء فليمحه.** انظر "ابن حزم - الأحكام" ج2 ص139.

وكان خوف عمر أن يحدث ما حدث لأهل الكتاب من تأليه الأنبياء وتقديس كلامهم، فيتحول مع الوقت إلى وحي له شأن الوحي الإلهي وكهنوت، كما حدث في الأديان الأخرى.. ثم كان الخوف الأكبر من الأحاديث الموضوعة والمدسوسة والإسرائيليات.. وليس أدل على هذا الخوف من أن البخاري لم يدون من ستمائة ألف حديث جمعها إلا أربعة آلاف حديث فقط، وهو نفس الخوف الذي كان في قلب أبي حنيفة الذي لم يصح عنده إلا سوى سبعة عشر حديثاً من مئات الألوف.

وإذا كان هذا الشك والخوف عند الأكابر.. فإن من الطبيعي أن يكون عندنا أضعاف هذا الخوف، وأن لا نقبل من الأحاديث ما ناقض القرآن الكريم ليس إنكاراً للسنة ولكن غيرة على السنة وخوفاً عليها من الوضاعين والمتقولين الذين قولوا الرسول عليه الصلاة والسلام ما لم يقل.. إنما نحرص على تنقية السنة من كل دخيل عليها.

وفي سورة الأعراف الآية 185 يقول رب العزة والجلال عن قرآنه: **(فأي حديث بعده يؤمنون).**

وأمر النبي عليه الصلاة والسلام بإحراق كل ما كان يكتب من أحاديثه باعتراف أبي هريرة نفسه واعتراف الأكابر من رواة الأحاديث.. وما فعل أبوبكر وعمر بإحراق ما وصل إلى أيديهما من أحاديث الرسول، هو أكبر دليل على استنكار النبي وخشيته وخوفه من أن تتحول هذه الكتابات إلى متاهة من التقولات والاختلافات، وما نقوله الآن في كتاباتنا هو السنة بعينها وليس إنكاراً للسنة.. إنما نخاف ما كان يخافه رسول الله ونخشى ما كان يخشاه.

وفي سورة الأعراف أيضاً الآيات 2-3:

**(اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون)** ولا شك أن الحجية العليا تكون للقرآن دائماً، خاصة في الأمور الغيبية التي لا يعلمها إلا هو، ولا يرتفع إلى مستوى هذه الحجية حديث ولا يدانيها مقال، فالغيب من شأن الله وحده.

فإذا كانت آيات القرآن قد نفت الشفاعة في أكثر من مكان، فنحن نقف مع القرآن، ونرى أن هذا هو الأسلم.. وهذه هي السنة التي يحبها ويرضاها مولانا رسول الله.. يقول القرآن في محكم آياته: **(يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة)** وفي سورة السجدة:**(الله**

**الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع)** (وهو نفي قطعي لأي نوع من ولي أو شفيع).

والله يربط هذا الأمر باسمه الجلالي.. الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما.

ثم من بعد ذلك يربط آيات الشفاعة بالإذن فلا حق لشافع أن يشفع بدون إذن منه سبحانه **(ما من شفيع إلا من بعد إذنه)** فهي شفاعة مشروطة وليست مطلقة.

مثل هذه الآيات المحكمة كانت لا بد أن تؤدي بنا إلى وقفة حذر وتأمل.. وقد وقفها معي الشيخ المراغي شيخ الأزهر السابق والشيخ محمد عبده وشيخ الإسلام ابن تيمية.. والأكابر من السلف الذين أحبوا القرآن وأحبوا السنة.. ووقفها معي كل ذي عقل وكل حريص على دينه، وقالوا: لا بد أن تفهم الشفاعة التي وردت في القرآن على غير ما نفهم من شفاعات الدنيا.. فقالب بعضهم: هي دعاء يدعوه الرسول عليه الصلاة والسلام ليخفف الله على الناس من أهوال المحشر.. وقال البعض الآخر: هي مقيدة بالإذن الإلهي.. الإذن سيكون للشافع وللمشفوع فيه ولموضوع الشفاعة.. وقال البعض: إن الأمر بالعقاب أو بالعفو قد صدر على العباد منذ الأزل وانتهى الأمر.. وما الشفاعة إلا تكريم للشافع وإعلان لوجاهته عند الله.. ولا أحد يملك أن يغير من أمر الله شيئاً فأهل النار هم أهلها منذ أن ولدوا.

وما يحدث في يوم القيامة غيب.. فكيف يجوز الاختلاف والتراشق بالتهم في غيب!!.

ولكن هواة الشجار ما زالوا يتشاجرون ويقذفون بالتهم بلا مناسبة.. فنحن خوارج ونحن منكرون للسنة ونحن مثيرون للفتنة.. واتهمنا المسرفون بالكفر، ونحن ما كفرنا ولبا خطر لنا الكفر على بال.. بل كنا أهل شغف بالقرآن وأهل تعلق بآياته أكثر منهم.. وكيف يصبح البحث والتدبر والتأمل في آيات الله كفراً.

ونحن ما أنكرنا سنة وما أثرنا فتنة وما خرجنا على إجماع.. وإنما كانت لنا وقفة أمام إشكالية.. والإشكالية حقيقية وليست مفتعلة.. وهي مثار خلاف من قديم.

ونفكر معاً في الموضوع.

ونتحاور في هدوء.

كيف تصور المسلمون أن لهم استثناءات في الآخرة، وأن المسلم لن يدخل النار ولن يجلد فيها.. والقرآن يقول في محكم آياته: **(ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين)**

ويقول عن الظالمين؛ والظالمون فيهم المسلمون وغير المسلمين: **(ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع)** (غافر 18)

لا شفاعة لظالم.. والجبارون والطغاة الذين عذبوا الناس واضطهدوهم وقتلوهم بطول التأريخ وأطقم النفاق التي كانت تعاونهم، في الدرك الأسفل من النار.

**(إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً)** لا نصرة لهؤلاء ولا شفاعة **(وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم )**(التوبة 68)

والمنافقون يقولون: لا إله إلا الله. في الظاهر ويرددون التسابيح كل يوم **(إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً)** (النساء 140)

لا استثناء للمنافقين المسلمين فهم مع الكفار في الدرجة لأن إسلامهم إسلام لسان لا إسلام قلب.. لا مجاملات ولا شفاعات.. العدالة قاطعة كالسيف.. وهذا هو اليوم الذي يشيب لهوله الولدان.

هل أخطأنا أم عند الرافضين قرآن غير القرآن الذي بين أيدينا؟!.

أفيدونا.. أفادكم الله..

# صناعة الإنسان

ولد البخاري في عام 194 هجرية، ومسلم ما بين 204-206 هجرية، والترمذى ما بين 209-210 هجرية، والنسائي 215 هجرية، وأبو داود 202، وابن ماجه 209 هجرية، والدارمي 250-255 هجرية، وأكثرهم جمعاً للأحاديث كان البخاري ما بين أربعمائة ألف إلى ستمائة ألف حديث.

وكانت وفاة أغلبهم بين 250-300 سنة هجرية.

ومعنى ذلك أن جمع الأحاديث وتدوينها كان بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام بأكثر من مائتي سنة.. ويسأل الصديق الدكتور محمد البشير.. ماذا كان حال الإسلام في المائتي سنة قبل البخاري.. حينما لم يكن هناك سوى القرآن للمسلمين مرجعاً محفوظاً ومدوناً؟ والجواب واضح ومؤكد فقد كانت هذه المرحلة هي أزهى عصور الإسلام بلا جدال.. وكانت الفتوحات الإسلامية قد اقتحمت التأريخ طولاً وعرضاً وبدلت الخريطة الجغرافية للكرة الأرضية وسجلت الفروسية العربية أعظم البطولات.. كل هذا قبل البخاري وقبل الأحاديث المدونة وبالقرآن وحده، وكان المسلمون يصلون ويحجون ويؤدون الشعائر كاملة من قبل البخاري ومن قبل كتّاب الأحاديث وكانوا يأخذون صلاتهم وحججهم وأداء شعائرهم من الرسول مباشرة وقد انتقل إلينا كل هذا تواتر وكانت السنة حية نابضة في أسلافنا من قبل أن تكتب ومن قبل أن تدون ومن قبل أن يرويها البخاري وكتّاب الأحاديث.

فأين نحن الآن من ذلك العصر البطولي.. وبين أيدينا مكتبة هائلة بل مكتبات من السيرة والأحاديث والمراجع والدراسات لم تصنع جميعها ما صنع القرآن وحده في فجر الإسلام.

إن صناعة الإنسان هي المعجزة.

فماذا صنعت كل هذه المكتبات والمدونات والأبحاث والجامعات؟

لم تصنع عشر معشار ما صنع القرآن وحده.. ولم يستطع البخاري وصحبه بأحاديثهم ومدوناتهم أن يصنعوا من المسلمين ما صنع القرآن.

والمسألة لغز يستحق أتأمل.

إن ما صنعه البخاري بإخراجه مذنبي المسلمين من النار بشفاعة الرسول عليه الصلاة والسلام كما روى في أحاديثه لم تأت بالمسلم الأفضل.. بل جاءت بالمسلم الأضعف المتواكل الذي يحلم بدخول الجنة بلا عمل.. وهذا صلب الموضوع ولبه ولبابه ولسنا ضد البخاري ولا ضد رواة الأحاديث وهم على رؤوسنا جميعاً بما اجتهدوا وما عملوا.. وإنما الموضوع هو صنع الإنسان المسلم.. وكيف نستطيع أن نخرج من بيننا المسلم القوي وكيف نستطيع أن نخرج البطل الذي يغير من أحوالنا إلى الأفضل ويصلح من قلوبنا وعقولنا ليجعلنا أكثر استتاره وأكثر شجاعة.

يقول الصديق الدكتور محمد البشير.. اقرأ ما جاء في سورة الأنبياء الآية 27-28 عن المؤمنين الأكابر **(لا يسبقونه بالقول** (أي لا يسبقون ربهم) **وهم بأمره يعملون يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون)**.. إن الخشية والرهبة والفزع هي الحالة العامة في هذا اليوم.

وهم أهل خشية يتهامسون ولا يتكلمون ولا يتدخلون إلا إذا علموا أن الله قد رضي عن فلان.. حينئذ يشفعون له وشفاعتهم تأتي تالية لأمر الله وليست سابقة عليه.. فهي تشبه بالبشارة والتهنئة لصاحب النصيب وحاشا لله أن يتدخل أحدهم ليعدل من حكم الله أو أن يسبقه بالقول.. فهذا محال.. والمعنى صريح.. أن الشفاعة لله جميعاً وأنه منفرد بها وأنه لا يشرك في حكمه أحداً.. وبالتالي يكون إخراج أحد من النار صدر حكم الله عليه أمراً أكثر استحاله.. والله يتحدث عن غيب هو وحده الذي يعلمه.. وليس لنا ولا للبخاري أن نضيف من عندنا شيئاً ولو حرفاً واحداً.

وما حدث من تدهور خالة المسلمين سببه هو هذا اللون من الشرك الخفي.. قبول أن يكون لله شريك في حكمه يشفع عنده ليخرج من أدخله النار.

والشرك الخفي هو الآن حالة عامة فقد أصبحت لنا محبوبات كثيرة في هذه الدنيا تأخذنا وتسلبنا من حالة التفكير والاستغراق في ربنا وخالقنا.

والمسألة تبدو في البداية أنها خلاف بسيط في ألفاظ.. ولكنها في الحقيقة خلاف في لب القضية وخروج عن مقتضى التوحيد الواجب لله.. فالله واحد أحد ليس كمثله شيء.. وبالتالي لا يصلح الإنسان أو الملك أو رئيس الملائكة أو أبو الأنبياء أن يكون له شريكاً على أي مستوى.. وهو منفرد بالأمر والحكم ولا يجوز أن يدخل أحد أو أن يعدل أو يبدل في حكمه.. فهو الله الذي لا إله إلا هو.. وهذا

هو جوهر الإسلام.. وبداية هذا الشرك الخفي كان معناها بداية انحدار الإنسان وبداية ضياعه وسقوطه عن مصادر إلهامه.

والمقام المحمود الذي ذكر في القرآن خاصاً بالنبي عليه الصلاة والسلام لا يجوز أن يكون مقام شراكة أو مداولة أو مشاورة في الأحكام.. تعالى ربنا عن ذلك علواً كبيراً.. إنما هو من الأسرار التي لا يعلمها إلا الله، ولا يصلح لنا الخوض فيها.

والموقف من الشفاعة التي وردت في القرآن هو لون من ابتلاء الله ومكره الخفي لاختبار درجة الإيمان ودرجة التوحيد والتنزيه التي بلغها عبده المسلم.

والمسلم الذي بلغ درجة التقوى في إسلامه ينبغي أن يأخذ أحاديث الشفاعة بمنتهى الحذر ويرفض أكثرها بلا تردد.

ونقف معاً أمام الحديث الذي رواه البخاري عن سيدنا موسى حينما قضى ربنا عليه الموت وأرسل له ملك الموت ليقبض روحه.. ماذا قال لنا البخاري.. قال إن موسى رفض أن يموت وضرب ملك الموت على عينه ففقأها فرجع ملك الموت إلى ربه فرد له بصره.

كيف يجوز هذا الكلام والقرآن يقول في قطع لا لبس فيه:

**(أن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون).**

**(ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها)**

**(فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون).**

فأين موسى من كل هذا.. وكيف يضرب الملك على عينه ويرفض أن يموت؟.

وأين كلام البخاري من كلام القرآن؟.

إن الحديث واضح الزيف ومثله كثير في البخاري.

والشيطان لا يمل من المكر بالإنسان خاصة في موضوع الشرك لأنه يعلم أن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.. ونقرأ في القرآن عن الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله وعن الذين عبدوا الشمس والنجوم والقمر والكواكب واتخذوا الأصنام والملائكة أرباباً يعبدونها.. ونقرأ عن الذي اتخذ إلهه هواه.. وعبد نفسه.. ولهذا كان موضوع الشفاعة موضوعاً محبباً لشيطان لاستدراج الإنسان إلى الشرك.. وحرص القرآن بالمقابل على بيان أن الشفاعة لله جميعاً وأنه لا مدخل لأحد فيها إلا بإذن من الله وأكدت آيات القرآن أن الله واحد أحد صمد لم يتخذ صاحبة ولا ولد.

وقرأنا في القرآن أن السموات تتفطر والجبال تنهد لمجرد سماع أن لله ولداً.

**(وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إدّاً تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّاً أن دعوا للرحمن ولداً وما ينبغي للرحمن أن**

**يتخذ ولداً أن كل من السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً لقد أحصاهم وأعدهم عدّاً وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ).**

إن الكون كله يحتج على هذا الشرك الغليظ فالله واحد أحد ولا مدخل لمخلوق إلى أحديته.

والشفاعة فيها فتنة لأنها تزين للعبد مصلحة، ومن هنا يحلو للشيطان أن يستدرجنا من خلالها لنفعل ما نشاء من الموبقات وخطايا ولا نشغل أنفسنا بتوبة، فصاحب المقام المحمود سوف يخرجنا في النهاية من النار بإشارة من يده.

ولم يسلم رواة الأحاديث من هذا المنزلق، فهم بشر فيهم ضعف البشر وليسوا ملائكة.. ومن هما جاءت المشكلة.

واقرأوا فصول الموضوع من أوله، وفكروا معي في هدوء وحياد ودون أفكار مسبقة.

ويعلم الله أنه ما دفعني إلى كتابة ما كتبت إلا محاولة استجلاء الحقيقة وابتغاء وجه الله.. فأنا مثلكم من الخطائين وكان أنفع لي أن آخذ كلام البخاري على علاته، ولكن الله عندي أحق وأولى.

وأدعو لنفسي ولكم الهداية.